من آيات الله

فى الماء

قال تعالى فى سورة النحل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠].

هاتان الآيتان من سورة النحل تذكر أن بعض نعم الله على خلقه، فإنه سبحانه وتعالى ينزل الماء من السماء وفق النواميس التى خلقها، فى هذا الكون والتى تدبر حركته، وتنشئ نتائجها وفق إرادة الخالق وتدبيره، بقدر خاص.

فالقرآن الكريم يتخذ من مشاهد الماء دلائل على إثبات وجود الخالق سبحانه، فهذا الماء النازل من السماء ما هو؟ وكيف نزل؟.

إن الإنسان يمر بهذه الخارقة سراعاً لطول الألفة، وطول التكرار، إن خلق الماء فى ذاته خارقة، ومهما عرف الإنسان أنه ينشأ من اتحاد ذرتى أيدروچين بذرة أكسوچين تحت ظروف معينة.. فإن هذه المعرفة جديرة بأن توقظ قلوب الناس إلى رؤية يد الله التى صاغت هذا الكون بحيث يوجد الأيدروچين ويوجد الأكسوچين، وتوجد الظروف التى تسمح باتحادهما، ويتكون الماء من هذا الاتحاد، ومن ثم وجود الحياة فى هذه الأرض، ولولا الماء ما وجدت حياة، إنها سلسلة من التدبير حتى تصل إلى وجود الماء ووجود الحياة. والله عز وجل من وراء هذا التدبير، وكله مما صنعت يداه. ثم نزول هذا الماء بعد وجوده هو الآخر خارقة جديدة، ناشئة من قيام الأرض والكون على هذا النظام الذى يسمح بتكوين الماء ونزوله وفق تدبير الله.

قال تعالى فى سورة الانعام: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ

وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقال تعالى فى سورة الزمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ [الزمر: ٢١].

إن نزول الماء من السماء آية توقظ القلوب، وتنبه العقول إلى قدرة الخالق، فإنه سبحانه يسلط أشعة الشمس على البحار والأنهار، فيخرج منها بُخارٌ يتحول إلى سحاب، ويسلط عليه الرياح، فتحمله إلى حيث يشاء الله، فينزل منه ماء عذباً. قال تعالى فى سورة الروم: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].

وقال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

هذا الماء الذى ينزل على الأرض يشرب منه الانسان ﴿لكم منه شراب﴾ فالقرآن يبرز خصوصية الشراب فى هذا المجال على أنه نعمة من نعم الله، وآية من آياته، ثم يبرز أيضاً خصوصية المرعى ﴿ومنه شجر فيه تسيمون﴾ وهى المراعى التى تربى فيها السوائم، وسميت الأنعام سائمة لأنها تسم الأرض بأرجلها أى تترك فيها أثراً أو تسم المراعى بما تأكل منها فتترك آثارها عليها.

هذا الماء الذى يشرب منه الإنسان والحيوان يقول رب العزة فيه ﴿ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات﴾. أى ينبت لكم بالماء الذى أنزله من السماء أصنافاً مختلفة من النبات، بدأتها الآية الكريمة بالزرع لأنه أصل الغذاء، وعمود المعاش، وبه قوت أكثر العالم، ثم أتبعته بذكر الزيتون لأنه غذاء ودواء، وقدمت النخيل على الأعناب لأن فيها غذاء متكاملاً، وفوائد أخرى، ولأنها ينتفع بها زمناً طويلاً. والمراد بالأعناب ثمار العنب، ثم خَتَمَتْ الآية الكريمة ما ذكرته من أصناف النبات والشجر بقوله تعالى: ﴿من كل الثمرات﴾ للإيذان بأن ما ذُكِرَ من قبل إنما هو بعض النعم، وإن خيرات الله، وثمرات

الشجر، تفوت الحصر. ولا شك أن هذه النعم تدفع الإنسان إلى التفكير والتأمل، ولذلك قال الله تعالى: ﴿**إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون**﴾ أى يتفكرون فى تدبير الله لهذا الكون ونواميسه المواتية لحياة البشر.

وما كان الإنسان يستطيع الحياة على هذا الكوكب لو لم تكن نواميس الكون مواتية لحياته موافقة لفطرته ملبية لحاجاته.

وما هى بالمصادفة العابرة أن يخلق الإنسان فى هذا الكوكب الأرضى، وأن تكون النسب بين هذا الكوكب وغيره من النجوم والكواكب هى هذه النسب، وأن تكون الظواهر الجوية والفلكية على ما هى عليه ممكنة للإنسان من الحياة، ملبية هكذا لحاجاته على النحو الذى نراه.

والذين يتفكرون هم الذين يدركون حكمة التدبير، وهم الذين يربطون بين ظاهرة كظاهرة المطر، وما تنشئه على الأرض من حياة، وشجر، وزروع، وثمار، وبين النواميس العليا للوجود. ودلالتها على الخالق، وعلى وحدانية ذاته، ووحدانية إرادته، ووحدانية تدبيره.

أما الغافلون فيمرون على مثل هذه الآيات فى الصباح والمساء، فى الصيف والشتاء، فلا توقظ تطلقهم، ولا تثيروا استطلاعهم، ولا تستجيش ضمائرهم إلى البحث عن صاحب هذا النظام الفريد.

وهؤلاء وحدهم لا يرون، فمن تفكر رأى، وأن هؤلاء الذين يلحدون مصيبتهم أنهم لا يتفكرون، ولا يشعرون أنهم لا يتفكرون، بل يظنون أنفسهم أنهم مفكرون.

فما أحرى الإنسان أن يجعل آيات الله مسرحاً لنشاطه الفكرى والعقلى. والقرآن الكريم يلفت حسَّ الإنسان وقلبه وعقله للنظر إلى ما فى السموات والأرض لعله ينبض، ويتحرك، ويتلقى، ويستجيب، قال تعالى فى سورة يونس ﴿**قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ**﴾ [يونس: ١٠١].

* * *